

الباشا ... حكاية لقب

بقلم : عبد الآخر حماد

وَلَعُ المصريين باستعمال الألقاب في أحاديثهم معروف مشهور حتى إني قرأتُ أن دراسة علمية أجراها عالم اجتماع أمريكي قد كشفت أن المصريين أكثر شعوب العالم استعمالاً للألقاب في حياتهم اليومية، وكثير منهم لا يستطيع أن يبدأ كلامه إلا بأن يجعل من الألقاب مدخلاً لكلامه كأن يبدأ بكلامه بقوله : حضرتك أو سعادتك أو معاليك بحسب مكانة الشخص الذي يخاطبه، ثم يدخل في ما يريد .

وحين عدت إلى مصر بعد غياب قارب العشرين عاماً رصدت تغيرات كثيرة في بنية المجتمع المصري وأخلاقه وعاداته، فكان مما لاحظته كثرة مناداته الناس لبعضهم بلقب (باشا)، حتى إني كنت أركب حافلة صغيرة (ميكروباص) وكان يركب معنا شابان غير مصريين تدل ملامحهما على أنهما من جنوب شرق آسيا، فلما حان وقت نزولهما لفت انتباهي قول أحدهما للسائق بلكنة أعجمية : شكراً يا باشا ، فقلت في نفسي إذا كان سائق الميكروباص باشا فماذا بقي للوزراء وغيرهم من علية القوم؟، وقد ذكرني ذلك بموقف طريف مع الشيخ صلاح أبي إسماعيل رحمه الله فقد زارنا مرة في مدينة أسيوط فلاحظ أن الإخوة جميعاً ينادي بعضهم بعضاً بيا شيخ، وكانوا شباناً صغاراً لا يُعرف أكثرهم بطلب العلم والتبحر فيه، فقال رحمة الله عليه: إذا كنتم أنتم مشايخ فماذا أبقيتم لأمثالنا!؟

وبدهي أني لا أقصد هنا الغض من قدر فئة معينة في المجتمع؛ فنحن أولاً وآخرًا موقنون بقول الله عز وجل : (إن أكرمكم عند الله اتقاكم)، وإنما قصدت الإشارة إلى حال الحياة الدنيا وتقلبها بأهلها من حال إلى حال، وذلك من خلال الحديث عن لقب من الألقاب كان له فيما مضى عز وسلطان، لا يلقب به إلا من يدفع فيه أغلى الأثمان، فإذا به يتزل من عليائه ليصير بلا ثمن ينادى به كل أحد، وكأنا ينطبق عليه قول النبي صلى الله

عليه وسلم في شأن ناقته العضباء التي كانت لا تُسبق أو لا تكاد تُسبق فجاء أعرابي على قعود فسبقها ، فشق ذلك على المسلمين ، فقال صلى الله عليه وسلم : (حق على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه) . [رواه البخاري (2872) وأبو داود (4802) من حديث أنس بن مالك]

وكلمة باشا هي في الأصل كلمة تركية معناها - كما في المنجد - رجل الملك (بكسر الراء وسكون الجيم) ، لكنها من حيث كونها لقباً لم يكن ينالها عند العثمانيين الذين انحدرت إلينا منهم إلا عليّة القوم بعد السلطان كالصدر الأعظم وهو بمثابة رئيس الوزراء وكذا كبار القادة العسكريين وولاة الأقاليم الكبيرة .

وحتى عصر محمد علي لم يكن في مصر إلا باشا واحد هو الوالي العثماني ، لكن مع تولي محمد علي باشا حكم مصر توسع الأمر قليلاً فصار لقب الباشا يطلق على بعض أعوانه من الأتراك ، وفي عهد خلفاء محمد علي صارت الباشوية مرتبطة بالوظائف الكبيرة فكان ينالها النظار (أي الوزراء) ومديرو المديرات (المحافظون) ، ثم صارت تعطى لكبار الموظفين ، وكبار الأعيان والملوك ، كما كان البعض يدفع المبالغ الطائلة ليصدر الملك مرسوماً بتلقيه بلقب باشا .

إلى أن جاءت ثورة يوليو 1952م فألغت الطربوش والألقاب ، وكلاهما من بقايا حكم الأتراك العثمانيين لمصر ، حتى ذكروا أنه في بدايات الثورة كان هناك تقليد بين ضباط الثورة بأن من يضبط منهم متلبساً بنطق أحد تلك الألقاب فإن عليه أن يدفع غرامة قدرها قرش صاغ واحد [جاء ذلك على لسان منير حافظ - أحد من عملوا في مكتب الرئيس عبد الناصر - وذلك في كتاب بعنوان عبد الناصر الذي لا تعرفه لرشاد كامل] .

وكان رجال الثورة يرون أن ينادى الجميع بالسيد فلان ، حتى إن الدفاتر المدرسية التي كانت وزارة التربية والتعليم توزعها على التلاميذ في بدايات عهد الثورة كان يكتب على غلافها الأخير مجموعة من الإرشادات منها هذه الجملة : كلنا سيد في ظل الجمهورية .

ثم تغيرت الأحوال بعد نهاية الحقبة الناصرية فإذا بالألقاب الملغاة تعود على استحياء ، ثم لم تزل تتسع دائرة استعمالها على الألسنة ، لكن كان أقصى ما لمسناه حتى حقبة الثمانينيات من القرن الماضي كثرة استعمال لقب (بيك) وهو لقب تركي أيضاً ، كان يلي في مصر

قبل الثورة لقب الباشا، لكنه نزل من عليائه في تلك الحقبة، إلا أنه مع ذلك لم يكن ينادى به كل أحد إنما ينادى به كبار الموظفين كمديري العموم، ووكلاء الوزارات وضباط الشرطة ووكلاء النيابة، أما صغار الموظفين فحسبهم أن يقال عن أحدهم الأستاذ فلان .
وأما هوان لقب الباشا الآن فهو فوق كل هوان؛ إذ صار -بعد ما كان فيه من العز والسلطان- لقباً -كما رأينا- ينادى به كل أحد، وقد ذكرني ذلك بما كتبه الشيخ عبد العزيز البشري وهو عالم وقاضٍ شرعي كان من كبار ظرفاء مصر في القرن الماضي حيث كتب في كتابه (قطوف) عن لقب أفندي، وكيف كان له في سابق العهد مكانة ومترلة حتى إنه كان لقباً لحكام مصر حقبةً من الزمن فكان يقال عن الخديوي : أفندينا، ثم ما زال الزمان يتزل بلقب أفندي حتى صرتَ كما يقول الشيخ البشري رحمه الله : ((إذا دعوتَ به موظفاً أو طالباً أو فتى يعيش بفضل إرث تجهم لك وانعقد ما بين عينيه المأً وغضباً، وربما ابتدرك من القول أو الإشارة بما يسوؤك))، فهل يا ترى يمكن أن يتزل لقب الباشا إلى تلك الدرجة التي وصل إليها لقب الأفندي؟ الله أعلم، لكن ما شيء على الله ببعيد، فهذه الدنيا - كما قال أبو البقاء - لا تُبقي على أحدٍ، ولا يدومُ على حالٍ لها شأنُ.

عبد الآخر حماد

1430/2/18هـ

موقع الرحمة

تحت إشراف فضيلة الدكتور عبد الآخر حماد